الإمام الرضا عليه السلام
في الشعر العربي القديم
(صورة وقضية)

Imam Al-Ridha
(Peace be upon him)
in the Old Arabic Poetry
Image and Cause

أ. م. د. إيمان عبد دخيل
جامعة بابل / كلية الآداب
قسم اللغة العربية

Asst. Prof. Dr. Eman `Abid Dakheil
University of Babylon
College of Arts
Arabic Department

... ملخص البحث ...

الشعر بوصفه موقفا إنسانيا يستجلي وعي الشاعر اتجاه الحياة والوجود البشري، كان حاضرا في الحياة العربية الثقافية منذ مرحلة مبكرة، ولاسيما انه شعر يحتفي بالواقع ويترسّم في جدله المستمر معه؛ بناء أنظمته المثالية، وكان حضور الرجل بوصفه قيمة وشخصية، خلقا وأخلاقا؛ طاغيا في تأثيره وتأثره. احتفل بعض هذا الشعر بشخصية الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، راسما له صورة رائعة تمثل الكمال الإنساني الخالص، والخير الذي تطلّبته الكتب السماوية في العبد الصالح. وواكب حياته ونفذ إلى الخفايا والبواعث المعقدة للحياة السياسية التي زّج فيها الإمام مرغما، وأفضت إلى قتله مسموما.

وهذا البحث محاولة للوقوف عند هذا الشعر الذي سجل بجرأة وشجاعة نادرة، موقفه الصريح من الإمام ومن الأحداث المهمة في حياته ولاسيما علاقته بالمأمون وولاية العهد، وقضية موته الغامضة. وقد استجلى البحث هذه الوقفة عبر ثلاث محطات هي:

١. تجلي صورة البطل / المثال شعريا :وهي محطة تقارب الشعر الذي جسّد صورة الرضا عليه السلام الإنسان والإمام .

٢. تجلي ثنائية الخير/ الشر شعريا : وفيها وقفة عند المقارنة التي عقدها الشعراء بين الرضا عليه السلام والخلفاء العباسيين ولاسيما المأمون .

٣. تجلي صورة الشهادة شعريا: وفي هذه المحطة وقفة عند قضية موت الإمام وما أحاط بها من خفايا وغموض.

...Abstract...

Poetry, as defined, is a humanistic stance stimulating the passion of a poet into life and existence and comes into light in the cultural Arabic life since early stages. Such is incarnated with reality and works in tandem with its criticism and perfect systems; the entity of man is described as a value and personality in creation and ethics domain that are preponderant in his influence and obeisance.

Some of such poetry takes hold of both the personality of Imam Ali Ibin Al-Ridha (Peace be upon him) and portrays him as marvelous in the light of sheer human perfection and the features of the good man the divine texts target, and keeps pace with his life, permeates through the hidden items and complicated stimulus in the political life the Imam indulges himself in; all these lead to his poisoned quietus. Such a research paper is an endeavour to draw a line of importance to salient candid stances the Imam takes in his life, in particular, the relationship with Al-Mammon, Al-`Ahid region and the case of his mysterious death. The meant study takes such a viewpoint in terms of three pivots:

1. 1-Having the portrait of the hero: the poetic image that is a point of poetry convergence incarnating the image of Al-Ridha (peace be upon him) as a man and Imam.
2. 2- having the brace of vice and virtue; there is a comparison the poets set between Al-Ridha (Peace be upon him) and Abbasid Caliphates, specifically, Al-Mammon.
3. 3-Having the image of martyrdom poetically: such a state sheds light on the death of the Imam and what mysteries and ambiguities it casts.

... المقدمة ...

يعد الأدب شكلا من أعمق أشكال وعي الإنسان بالحياة وبالمجتمع البشري، القادر على التفاعل معها أخذا وعطاء، ففي الآثار الأدبية يتحول الحلم الإنساني، إلى دافع حركي يجدد الحياة ويضفي عليها سمة التفتح. وهو في جدله المستمر مع الواقع يعيد تشكيل صورة هذا الواقع الضاج بمعانيه المختلفة، محركا في فعله المباشر أو غير المباشر معاني هذه الحياة، ومن هنا سمة خلوده واستمراره فهو جزء فاعل، مؤثر في الحياة ومتأثر بها.

وقد امتاز الشعر العربي بأنه شعر واقعي يحتفي بالواقع، صورة ومعنى، حتى في أبنيته الجمالية ينزع إلى إعادة إحياء الواقع نصيا؛ وعندما يتعالى الشعر نحو عوالم المثل، أو تصيد المعاني الرافلة بصور المبالغة؛ يبقى الواقع مداره الأول ينطلق منه ليعود إليه. فصوره ومعانيه مستمدة من الواقع، سواء في ذلك أكان واقعا صحراويا بقيمه الاجتماعية القبلية البدوية، أم كان واقعا مدنيا بقيمه الاجتماعية الحضرية.

وكان لعالم الرجال مدحا وقدحا رثاء وفخرا، الحضور الأول في هذا الشعر منذ أن بدأ الشاعر الجاهلي يسطر تأملاته، ورؤاه، ومواقفه، ومشاعره في كلمات تقال لتسمع ويحتفي بها احتفاء عظيما. ولعلنا لا نجد شعرا احتفى بالرجل قيمة وشخصية، خلقا وأخلاقا كما فعل الشعر العربي، فهو واكب الشاعر/ الذات، وواكب الآخر / الموضوع شيخا للقبيلة وسيدا للقوم، ورمزا، وخليفة، وسلطة، وواكب المهجو صورة للمنقصة والانتقام، والانتقاد، وواكب الفارس غازيا

ومقاتلا ومجاهدا ومدافعا، وواكب المحب عاشقا، متولها... الخ من الصور الأخرى ممثلا لها ومتمثلا لأبعادها الواقعية ولمتخيلها المثالي؛ «لأن الموقف الملازم لممارسة اللغة – وهو التبادل والحوار – يضفي على فعل الخطاب وظيفة مزدوجة: تمثيل الواقع وينظم تجربة الحدث، ومن هنا فإن فن الشعر بمفهومه الواسع يصبح فن الخطاب»[1].

وفي الأدب نجد نزوع الإنسان في بحثه عن صورة البطل، المجسد لقيم الخير والكمال والمثال الأرقى إنسانيا؛ الحلم الذي تبحث عنه اليوتوبيات المختلفة لتحققه وجودا واقعيا؛ وإذا كان الأئمة من آل البيت عليهم السلام قد جسدوا في سلوكهم الحياتي وشخصياتهم الإنسانية، أفضل تجلٍ لهذا الصورة فكان طبيعيا أن يحتفي بهم الشعر العربي. وهكذا واكب الشعر حياة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، فقد رسم له صورة رائعة تمثل الكمال الإنساني الخالص، والخير الذي تطلّبته الكتب السماوية في العبد الصالح.

وقد امتلك الشعر العربي قدرة على النفوذ إلى الخفايا والبواعث المعقدة، التي تتحكم بحالات النفس الإنسانية وتقلباتها، وعلى النفاذ إلى خفايا السياسة، والنظريات، والوقائع؛ فرؤية الشاعر الصافية تتيح له استجلاء البواطن، وكشف الحقائق المستورة؛ فشعر شعراء كبار مثل: أبي فراس الحمداني، ودعبل الخزاعي، وأبي نواس، وإبراهيم الصولي، والصاحب بن عباد، وغيرهم؛ نفذ إلى ما أحاط حياة الأمام علي بن موسى الرضا عليه السلام من أحداث، وتحولات وضعه فيها الخلفاء العباسيون، فكانت لهم نفحات شعرية واكبت الحدث وسبرته بنفاذ بصيرة كاشفة عن خفاياه بجرأة وشجاعة ونفاذ بصيرة.. وقد استجلى البحث هذه الوقفة عبر

ثلاث محطات هي:

١. تجلي صورة البطل / المثال شعريا: وهي محطة تقارب الشعر الذي جسّد صورة الرضا عليه السلام الإنسان والإمام.

٢. تجلي ثنائية الخير/ الشر شعريا: وفيها وقفة عند المقارنة التي عقدها الشعراء بين الرضا عليه السلام والخلفاء العباسيين ولاسيما المأمون.

٣. تجلي صورة الشهادة شعريا: وفي هذه المحطة وقفة عند قضية موت الإمام وما أحاط بها من خفايا وغموض.

المحطة الأولى

تجلي صورة البطل / المثال

رسم الشعر صورة بهية لعلي بن موسى الرضا عليه السلام، حلما، وعلما، وعطاء وهي صورة واقعية، تتأتى واقعيتها من أن الشاعر الذي اعتاد أن يشتط بخياله ويتصيد المعاني والصور المبالغ فيها ليرسم للممدوح صورة مثالية شعر في مدحه للإمام الرضا – ولكل أئمة أهل البيت – أنه ليس بحاجة إلى المبالغة أو الكد الخيالي في البحث عن المعاني والفضائل النبيلة لأنه يجدها متجسدة واقعا، وهو لا يفعل أكثر من أن يعيد نسجها في ثوب شعري ملفوظ، فهو يحاول أن يستوعب الواقع ويجسد حقيقة شخصية الإمام / الإنسان التي اكتملت، وتعاظمت؛ فعزّ على موهبة كبيرة مثل موهبة أبي نواس أن تجاريها شعريا، ولهذا نجده يعتذر عندما عُوتب عن تأخره في مدحه قائلا[٢]:

قيل لي أنت واحد الناس ... في كلِّ كلام من المقال تبديه
لك في جوهر الكلام بديع ... يثمر الدر في يديْ مجتبيه
فعلام تركت مدح ابن موسى ... بالخصال التي تجمعت فيه
قلت لا اهتدي لمدح إمام ... كان جبريل خادما لأبيه

وعلى الرغم من أن الواقعية قد تؤول إلى المباشرة والتقريرية، وأن الشعر لا يستقيم أثره، وجودة توصيله إلا بجنوح خياله، وبعد معانيه، وعلو صوره الجديدة

الصادمة؛ لكن هذا لا يعني أن هذا الشعر لواقعيته كان دون مستوى التجويد أو أنه مفتعل التجربة، وقديما رأى الصولي في معنى أبي نواس الذي تضمنته الأبيات السابقة ولا سيما البيت الأخير، تقدما وعلوا على من رأى أن أفخر بيت هو ما قيل في الأنصار يوم بدر[٣]:

وببئر بدر إذ يردّ وجوههمُ جبريل تحت لوائنا ومحمدُ

فالشعر عندما يتوخى الصدق والبساطة في نقل المعنى، مع سلامة الشعور ودقته، وإصابة المعنى، يصل إلى قلب المتلقي بيسر وسلاسة، وقد يقرّب المعنى أكثر موقف المأمون المتعجب من شعر دعبل الخزاعي في مدحه آل البيت عندما قال عنه: «قاتله الله ما أغوصه وألطفه وأدهاه»[٤].

تعالوا معي نستمع للشاعر نفسه الذي اعتذر سابقا عن تأخره في المدح، كيف يبدع ويتألق ببساطة وصدق شعوريين عندما تسنح له الفرصة فيلتقي بالإمام، ويستأذنه أن يُسمعه شيئا من الشعر الذي قاله فيه وفي آبائه[٥]:

مطهرون نقيات جيوبهم تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا
مطهرون نقيات جيوبهم فمالله في قديم الدهر مفتخرُ
الله لما برا خلقا فأتقنه صفّاكم واصطفاكم أيها البشرُ
فانتم الملأ الأعلى وعندكمُ علم الكتاب وما جادت به السور

فأبو نواس عندما يحدد لهم هذه السمات لا يتجوز أو يشتط أو يستعير، فآل البيت هم الملأ الأعلى، وعندهم علم الكتاب ورثوه عن جدهم رسول الله، والرضا عليه السلام شُهد له بـ «العلم والدين والسؤدد»[٦]، حتى قيل إنه «أفتى وهو شاب في أيام مالك»[٧]، وعنه يقول الصولي: «ما رأيت الرضا سئل عن شيء إلا علمه ولا رأيت

أعلم منه بما كان في الزمان إلى وقته وعصره وكان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كل شيء فيجيب عنه وكان جوابه كله وتمثله انتزاعات من القرآن المجيد»[٨]، وجاء عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه كان يقول لبنيه: **هذا أخوكم علي بن موسى عالم آل محمد فاسألوه عن دينكم واحفظوا ما يقول لكم**..[٩]. فقد عاش «بعد أبيه نحو من عشرين عاما ليترك للأجيال من عطائه الفكري في مجالات المعرفة المتنوعة ما يقيها من التعثر في مسيرتها لو قدر لها أن تأخذ بما تركه هو وآباؤه من تشريع وقيم وآداب ونصائح في مختلف المجالات»[١٠]، وقد عرف عنه تضلعه في الفقه والحديث والطب وقد روى عنه العشرات من خيرة علماء المذهب ومن غيره[١١].

والعلم منظومة شاملة لن يكتمل إلا بالخلق القويم، والنفس الإنسانية التي تقارب المثال في اكتمالها الواقعي، ومرة أخرى يروي لنا الصولي شيئا من هذا الخلق المتسامي كمالا يقول: «ما رأيت ولا سمعت بأحد أفضل من أبي الحسن الرضا وشهدت منه ما لم أشاهد من احد وما رأيته جفا أحدا بكلام قط ولا رأيته قطع على أحد كلامه حتى يفرغ منه وما ردّ أحدا عن حاجة قدر عليها ولا مد رجليه بين جليس قط ولا اتكئ بين يدي جليس له قط ولا رأيته يشتم أحدا من مواليه ومماليكه ولا رأيته تفل قط ولا رأيته يقهقه في ضحكه بل كان ضحكه التبسم وكان إذا خلا ونصبت الموائد أجلس على مائدته مماليكه ومواليه حتى البواب والسائل وكان قليل النوم بالليل كثير الصوم لا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر... وكان كثير المعروف والصدقة في السر وأكثر من ذلك منه لا يكون إلا في الليالي المظلمة فمن زعم أنه رأى مثله في فضله فلا تصدقوه»[١٢]، وقد وردت هذه الرواية في عيون أخبار الرضا، باختلاف يسير في اللفظ وفي الترتيب[١٣]، وأنى ذاك الذي يكون مثله وهذا خلق ملائكي يعجز عنه البشر.

ويرى فيه شاعر آخر اكتمال دور الهداية حيا وميتا، فقبره نور يجلي الظلم كما كان الإمام في حياته، جاء في عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق أنه وجد في كتاب لمحمد بن حبيب الضبي[١٤]:

قبر سنا أنواره تجلو العمى ... وبتربه قد تدفع الأسقام
قبر يمثل للعيون محمدا ... ووصيه والمؤمنون قيام

.....

يابن النبي وحجة الله التي ... هي للصلاة وللصيام قيام
انتم ولاة الدين والدنيا ... ومن لله فيه حرمة وذمام

وهو موقف فيه الكثير من أركان إيمان الشيعي وعقيدته في الالتزام بحجية الأئمة الاثني عشر، وولايتهم، وحرمتهم، وبركتهم في الشفاء. وفي المعنى ذاته نجد الصاحب بن عباد يقول[١٥]:

يا سائرا زائرا إلى طوسِ ... مشهد طهر وأرض تقديسِ
أبلغ سلامي الرضا وحط على ... أكرم رمس لخير مرموسِ

.....

يابن النبي الذي به قمع ... الله ظهور الجبابرة الشوسِ
وابن الوصي الذي تقدم في ... الفضل على البزل القناعيسِ
وحائز الفخر غير منتقص ... ولابس المجد غير تلبيسِ

ولأشجع بن عمرو السلمي أبياتٌ في مدح الرضا يستجلي فيها حقائق عقدية ترى الإمامة امتدادا طبيعيا لنور النبوة، فهي الجذر الذي تفرعت منه، ومن هنا أحقية التقديس الملازمة للإمامة، يقول[١٦]:

مـازال مقتبسا مـن نـور والـده ... إلى النبي ضياء غير مقبوسِ
في منبت نهضت فيه فروعكم ... بباسق في بطاح الملك مغروسِ
والـفـرع لا يرتقي إلا على ثقة ... من القواعـد والدنيـا بتأسيسِ

وهكذا فالشعر لا يغفل حق الرضا الإنسان والإمام، فيرسم له صورة ناصعة مشرقة تمثل صورة البطل الإنساني. وهي صورة ليست متكلفة، فإذا كان للمخيلة الشعرية أن تنشط وتتكلف المبالغة أحيانا كثيرة متجافية مع الواقع لترسم صورة للممدوح، فإنها مع أئمة أهل البيت لا تتكلف شططا؛ لأنهم صورة للاكتمال الإنساني.

المحطة الثانية

تجلي ثنائية الخير / الشر

استطاع الشعر الذي جسد مأساة الإمام الرضا عليه السلام في تعامله مع أعدائه أن يضع طرفي النزاع في ثنائية جسدت جدل الخير والشر في تمثيلها لهذين البعدين في الوجود البشري. فالشعراء كانوا يعقدون المقارنة بين البيتين العلوي والعباسي، لإظهار الفارق النوعي بينهما، فدعبل الخزاعي يوازن بينهما ولا سيما الرشيد وابنيه والرضا فيرى الفرق كبيرا، ففي الطرف الأول يقف الرشيد والأمين والمأمون، يمثلون الظلم، والغواية، والمجون، وخيانة الأمانة؛ لهذا هم يناقضون ألقابهم، يقول فيهم(١٧):

وعاثت بنو العباس في الدين عيثة تحكّمَ فيهم ظالم وضنينُ
وسمّوا رشيدا ليس فيهم لرشده وها ذاك مأمون وذاك أمينُ
فما قُبلت بالرشد منهم رعايةٌ ولا لوليّ بالأمانة دينُ
رشيدهم غاو وطفلاه بعدهُ لهذا رزايا دون ذاك مجونُ

وفي الجانب الآخر يرى الرضا عليه السلام ذا الفضل والمروة والعلم والحلم، الذي اعترف بفضله حتى المخالف* لا يقارن بهم بل لا يستطيع الشاعر إيفاءه حقه يقول(١٨):

لقد سبقتْ فيهم بفضلك آيةٌ لديّ ولكن ما هناك يقينُ

ولعل أوضح تصوير لجدل هذه الثنائية – ثنائية الخير / الشر، أبياته التي يصور فيها اجتماع رمزي هذه الثنائية في مكان واحد[١٩]:

قبران في طوس خير الناس كلِّهمُ وقبر شرّهمُ هذا من العبرِ
ما ينفع الرجس من قبر الزكيّ ولا على الزكيّ بقرب الرجس من ضرر
هيهات كلّ امرئ رهنٌ بما كسبتْ له يداه فخذ ما شئت أو فذر

يستلهم محمد بن حبيب الضبي معنى دعبل، وصورته الشعرية التي قرنت بين القبرين ودلالة من فيهما، لتظهر التضاد الحاد بين رمزي الخير والشر، ويسترسل في إضافة تنويعات جديدة على هذا المعنى يقول[٢٠]:

قبران في طوس الهدى في واحد جنوية فيها يزار إمامُ
قبران مقترنان هذا ترعة جنوية فيها يزار إمامُ
وكذاك ذلك من جهنم حفرة فيها يجدد للغوي هيامُ
قرب الغوي من الزكي مضاعف لعذابه ولأنفه الإرغامُ
أن يدن منه فإنه لمباعد وعليه من خلع العذاب ركامُ
وكذاك ليس يضرك الرجس الذي يدنيه منك جنادل ورخامُ
لا بل يريك عليك أعظم حسرة إذ أنت تكرم واللعين يسامُ
سوء العذاب مضاعف تجري به الساعات والأيام والأعوامُ

فهو لم يكتف بالإشارة اللماحة كما فعل دعبل بل مال إلى التشقيق والاسترسال في بيان هذا المعنى القائم على جمع الضدين في ثنائية تجاورية تكشف عن الاختلاف الكبير بينهما وعن استحالة التقريب بينهما على الرغم من القرب المكاني، وكأن هذا

التدبير في جمعهما مقصود لإظهار النقيض؛ فكلما اقترب الثوب الأسود من الثوب الأبيض بانت نصاعة البياض.

كذلك يعقد أبو فراس الحمداني مقارنة بين البيتين، ويخرج منها بنتيجة تنفي تحقق المقايسة أو حتى اقترابها؛ «لأن الخصومة بين البيتين كانت خصومة مبادئ لا تقف عند حدود الأشخاص، خصومة بين فئتين فئة تمثل الإسلام بكل أبعاده وأهدافه وفئة تمثل العنصرية والاستغلال والنزعة القبلية التي برزت بكل مظاهرها في عهد أسلافهم الأمويين ولم تختلف عما كان يحارب من اجله أبو سفيان وأبو جهل وأمية بن صفوان وغيرهم من جبابرة قريش وطغاتها الأشداء، ولكن بلون آخر وأسلوب جديد من أساليب ذلك العصر وباسم الإسلام»[٢١]، يقول أبو فراس[٢٢]:

ليس الرشيد كموسى في القياس
ولا مأمونكم كالرضا إن أنصف الحكمُ

وحتى يستجلي تمام المقارنة ينطلق من هذه الحقيقة إلى توسيع الدائرة بالموازنة بين البيتين، رموزا، ومكانة، ومنزلة دينية، وأخلاقية[٢٣]:

منكم علّية أم منهم؟وكان لهم ... شيخ المغنيين إبراهيم أم لكمُ
ما في ديارهم للخمر معتصرٌ ... ولا بيوتهم للسوء معتصمُ
ولا تبيت لهم خُنثى تنادمهم ... ولا يُرى لهم قرد له حشمُ
الركن والبيت والأستار منزلهم ... وزمزم والصفا والحجر والحرمُ
صلّى الإله عليهم، أينما ذكروا ... لأنهم للورى كهف ومعتصمُ

المحطة الثالثة

تجلي صورة الشهادة

يسجل الشعر موقفه الصريح من قضية موت الإمام مقتولا بالسم، التي مررتها بعض المصادر وهي تهوم بالحدث بين التصريح والتشكيك أو النفي الصريح، فهذا صاحب شذرات الذهب يتأرجح بين الموت بالحمى والموت بالسم يقول «وكان موته بالحمى وقيل بالسم»[٢٤]، أما صاحب الأعلام فيكتفي بالإخبار عن موته دون الإشارة إلى الكيفية[٢٥]، وينقل صاحب سير أعلام النبلاء أنه مات مسموما دون ذكر الكيفية[٢٦]. أما الشعر العربي القديم فقد وقف عند هذه القضية، وخاض في تفاصيلها، وقال الشعراء آراءهم الصريحة بجرأة نادرة.

في ديوان أبي فراس الحمداني الشاعر الفارس الذي خبر معنى الإقدام والتضحية والتجلد في الملمات، نجد موقفا مشرفا يقف من آل البيت عليهم السلام وقفة اعتراف بأحقيتهم لأنهم الأمثل لهذه المكانة ولعل ميميته*، المشهورة ذات المطلع[٢٧]:

الـديـنُ مخـترمٌ والحـقُّ مهتضمُ وفيء آل رسـول الله مُقتسمُ

أفضل شاهد على هذا الموقف. في هذه القصيدة تصوير لما آلت إليه حال المسلمين بعد الرسول، يقول[٢٨]:

قام النبي بها يـوم الغدير لهـم والله يشـهد والأفـلاك والأمُـم
حتى إذا أصبحت في غير صاحبها باتت تنازعها الذؤبان والرخمُ

ثم أدعاها بنو العباس إرثهم وما لهم قَدَم فيها ولا قِدَمُ

ويرى الحمداني أن هذا الأمر انتهى بآل الرسول مقتلين مشردين في الآفاق[٢٩]:

كم غدرة لكم في الدين واضحة وكم دمٍ لرسول الله عندكمُ

وقد مهد الشاعر بهذا الوصف لإعلانه الصريح بقتل الإمام على يد بني العباس[٣٠]:

باوؤا بقتل الرضا من بعد بيعته وأبصروابعضيومٍرشدهموعموا
ياعصبةً شقيت من بعد ما سعدت ومعشرا هلكوا منٍ بعد ما سلموا

فهو يتهمهم بالغدر وخيانة العهد الذي قطعوه للرضا بولاية العهد بعد المأمون العباسي، وبالضلالة بعد أن بصروا بالرشد، وأعلى درجات الغدر أن يدبروا قتله بعد أن أظهروا له ودا، وتقربا، وأمانا.

وقضية موت الإمام مرتبطة ارتباطا مباشرا بقضية ولاية العهد، التي جاءت حدثا غريبا في كل تاريخ علاقة العباسيين بالعلويين وغرابته تنبع من فرادته إذ لم يتكرر بعدها أبدا، فضلا عن أنه لم يحدث قبلها؛ لكن المدقق في هذا الأمر سيجد أن حركة المأمون هذه كانت إلتفافية وذات بعد استراتيجي مهم لتدعيم سيطرته على أطراف الدولة المترامية، التي بدأت فيها الانتفاضات والانقسامات تتهدد هذه السيطرة، فالمعروف أن صراع المأمون مع أخيه الأمين ودخوله في حرب انتهت بمقتل الأخير وتولي الأول الخلافة ولدت تذمرا واسعا في أوساط العباسيين الذين كانوا يناصرون الأمين[٣١]، ثم أن الدولة كانت تشهد انتفاضات علوية مؤيدة بدعم الشيعة في الكوفة، والمدينة، ومكة، والبصرة، واليمن، وكلها تنكر صنيع العباسيين

بالعلويين، والمأمون المعروف بقوة شخصيته العلمية والإدارية أدرك فداحة الأخطار التي تتهدد سلطته، ولهذا عمد إلى مهادنة الرأي العام الشيعي والعلوي بإعلانه التنازل عن الخلافة للإمام علي بن موسى عليه السلام وهو يعلم علم اليقين أنه سيرفضها، فلما رفضها قلده ولاية العهد مُكرَها[٣٢]، ولنا أن نتبين هذه الكراهة من موقف الإمام من مهمات وظيفتها إذ اشترط لقبولها أن لا يولي أحدا ولا يعزل أحدا ولا ينقض رسما ولا سنة[٣٣].

والمأمون بموقفه هذا أوقع بلبلة وتشتتا في صفوف الشيعة بين مصدق ومنكر. وان دل ذلك على شيء فيدل على حنكته السياسية، ودهائه، ومكره؛ لأنه لو كان صادقا في دعواه وأنه أراد لهذا الأمر أن يرجع إلى أصحابه الحقيقيين لما قمع بقوة وحزم كل حركة علوية أو متشيعة لهم في الدولة، حتى وصل عدد ضحايا حركة أبي السرايا الذي خرج بالكوفة داعيا لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن الحسن بن الحسن بن علي عليه السلام مئات الألوف كما يروي صاحب مقاتل الطالبيين[٣٤]. وكان من نتائج هذا التدبير أن هدأت الثورات الشيعية أو العلوية في المدة التي ولي فيها الإمام الولاية[٣٥].

دعبل الخزاعي هو الآخر يتهم العباسيين بالغدر فهم وان تلقبوا بالرشد والأمانة إلا أنهم لا يُؤتمنون[٣٦]:

فما قبلت بالرشد منهم رعايةٌ ولا لـــولي بـالأمـانـة ديـن

وقد انطلق من هذا الوصف إلى تمرير حقيقة وقوع القتل[٣٧]:

شككت فما ادري أمسقي شربة فأبكيك؟ أم ريب الردى فيهون

وإن ظهر متشككا فإنه سرعان ما يعلن صراحة عن اعتقاده بغدرهم بالإمام:

أيا عجبا* منهم يسمونك الرضا وتلقاك منهم كلحةٌ وغضونُ
أتعجبُ للأجلاف أن يتخيفوا معالم دين الله وهو مبين

فالشعر صريح في إعلان ماتخوف من إعلانه غيرهم من المؤرخين، والكتاب، والعلماء الذين تذرعوا بالمرض والريب والموت في إنهاء حياة الإمام. الشعر كان لا يهادن أو يماري في نقل هذه الحقيقة وتسجيلها للتاريخ شهادة لا تجرح.

١) أساليب السرد في الرواية العربية، د. صلاح فضل، دار المدى للثقافة والنشر، سورية، ط١، ٢٠٠٣: ٨٥.

٢) ينظر: ترجمة علي بن موسى الرضا في وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان أبو العباس أحمد بن محمد الدمشقي(٦٨١هـ) تحقيق إحسان عباس، مطبعة دار صادر، بيروت، ١٩٨٦: ٣/ ٢٧٠.

٣) ينظر: سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ)، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، ط١، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧: ٨/ ٢٤٩.

٤) كتاب الأغاني، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (٣٥٦)، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السعافين، وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م: ٢٠/ ٨٣.

٥) ينظر: أعيان الشيعة، محسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات: ٢/ ٥٧١.

٦) سير أعلام النبلاء: ٨/ ٢٤٨.

٧) نفسه.

٨) أعيان الشيعة: ٢/ ٥٤٦.

٩) سيرة الأئمة الاثني عشر المجلد الثاني، السيد هاشم معروف الحسيني، ط٥، مطبعة شريعت، الناشر انتشارات المكتبة الحيدرية، إيران: ٣٤٦.

١٠) م.ن: ٤١.

١١) ينظر: عيون أخبار الرضا، لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالصدوق، ط١، دار المرتضى، بيروت، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م: ١/ ٥٤، و١٩٥-١٩٧، وأعيان الشيعة: ٢ / ٥٤٧، وسيرة الأئمة الاثني عشر: ٤١٤- ٤١٥.

١٢) أعيان الشيعة: ٢/ ٥٤٦

١٣) ينظر: عيون أخبار الرضا: ٢/ ٥١٧-٥١٨.

١٤) م.ن: ٢/ ٦٠٦.

١٥) م.ن: ١/ ٣٦.

١٦) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني (٢٨٤ - ٣٥٦، شرح وتحقيق السيد أحمد الصقر، ط١، منشورات ذوي القربى، إيران - قم، ١٤٢٥هـ: ٤٥٨.

١٧) ديوان دعبل بن علي الخزاعي، جمعه وقدم له وحققه عبد الصاحب عمران الدجيلي، منشورات الشريف الرضي، ط٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢: ٢٨٩.

* قال الذهبي: «وقد كان علي الرضا كبير الشأن أهلا للخلافة» سير أعلام النبلاء: ٨/ ٢٥١.

١٨) ديوان دعبل الخزاعي: ٢٩٠.

١٩) م.ن: ١٩٨.

٢٠) عيون أخبار الرضا: ٢/ ٦٠٨.

٢١) سيرة الأئمة الاثني عشر: ٣٤٣ - ٣٤٤.

٢٢) ديوان أبي فراس الحمداني (٣٢٠هـ - ٣٥٧هـ)، رواية أبي عبد الله الحسين بن خالويه (٣٠٠هـ-٣٧٠هـ)، تحقيق سامي الدهان وأحمد عكيدي، منشورات وزارة الثقافة، سورية - دمشق، ٢٠٠٤: ٢٠٦.

٢٣) م.ن: ٢٠٧.

٢٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي (١٠٨٩)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، د.ت: ٢/ ٦.

٢٥) ينظر: الأعلام، خير الدين الزركلي: ٥/ ١٧٨.

٢٦) ينظر سير أعلام النبلاء: ٨/ ٢٥١. على أن بعض مصادر أهل السنة أعلنت صراحة أنه مات مسموما ومن هؤلاء ابن ماجه، وأبو الفرج الأصفهاني والحاكم النيسابوري.

* وينظر أيضا قصيدته البائية التي يتوسل فيها بآل البيت إلى الله تعالى: الديوان: ٢٣١.

٢٧) ديوان أبي فراس الحمداني: ٢٠٤.

٢٨) م.ن: ٢٠٥.

٢٩) م.ن: ٢٠٦.

٣٠) نفسه.

٣١) ينظر: تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨ م: ٩/ ٨٩، وعيون أخبار الرضا: ٢/ ٤٩٤-٤٩٥، والأعلام: ٥/ ١٧٨.

٣٢) ينظر: مقاتل الطالبيين: ٤٥٤ ـ ٤٥٥، وعيون أخبار الرضا: ٢/ ٤٦٦ وما بعدها.

٣٣) ينظر: عيون أخبار الرضا: ٢/ ٤٧٨، وسيرة الأئمة الاثني عشر: ٣٨٢-٣٨٣.

٣٤) ينظر: مقاتل الطالبيين: ٤٤٧.

٣٥) ينظر: سيرة الأئمة الاثني عشر: ٣٨٤.

٣٦) ديوان بن علي دعبل الخزاعي: ٢٨٩.

٣٧) م.ن: ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

* إنما يتعجب الشاعر لأن بعض المصادر ترى أنه لقب بالرضا لأن المأمون رضي به كما ورد في مناقب ابن شهراشوب. ينظر: أعيان الشيعة: ٢/ ٥٤٥، وقيل إن المأمون نفسه أطلق عليه هذا اللقب، ينظر: صورة العهد الذي كتبه المأمون للرضا بولاية العهد وقد أورده صاحب الأعيان كاملا في الجزء الثاني من كتابه في الصفحة ٥٥٦.

المصادر والمراجع

١) أساليب السرد في الرواية العربية، د. صلاح فضل، دار المدى للثقافة والنشر، سورية، ط١، ٢٠٠٣.

٢) الأعلام، خير الدين الزركلي، د. م. د.ت.

٣) أعيان الشيعة، محسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات.

٤) تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م.

٥) ديوان أبي فراس الحمداني (٣٢٠هـ - ٣٥٧هـ)، رواية أبي عبد الله الحسين بن خالويه (٣٠٠هـ- ٣٧٠هـ)، تحقيق سامي الدهان وأحمد عكيدي، منشورات وزارة الثقافة، سورية - دمشق، ٢٠٠٤.

٦) ديوان دعبل بن علي الخزاعي، جمعه وقدم له وحققه عبد الصاحب عمران الدجيلي، منشورات الشريف الرضي، ط٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢.

٧) سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ٧٤٨هـ، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، ط١، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧.

٨) سيرة الأئمة الاثني عشر المجلد الثاني، السيد هاشم معروف الحسيني، ط٥، مطبعة شريعت، الناشر انتشارات المكتبة الحيدرية، إيران.

٩) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي (١٠٨٩)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، د.ت.

١٠) عيون أخبار الرضا، لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالصدوق، ط١، دار المرتضى، بيروت، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

١١) كتاب الأغاني، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (٣٥٦)، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السعافين، وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

١٢) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني (٢٨٤- ٣٥٦)، شرح وتحقيق السيد أحمد الصقر، ط١، منشورات ذوي القربى، إيران - قم، ١٤٢٥هـ.

١٣) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان أبو العباس أحمد بن محمد الدمشقي(٦٨١هـ) تحقيق إحسان عباس، مطبعة دار صادر، بيروت، ١٩٨٦.